الفصل الأول

فى وصف فسطاط مصر بالقرب من جبل المقطم

بعد هبوط آدم أبو البشر وصفى الله اهتدى إلى مصر ووطأتها قدمه، وهى أول ما استوطن آدم أبو البشر وابنه شيث، وكذلك أبناؤه وقينان ومهلائل وهو النبى هود، وابنه اخنوخ وهو هرمس وفى العبرية اخنوخ، أى إدريس، وكان يقال عنه فى لغة أهل الجنة من الملائكة اخنوخ هرمس، وسموه بهذا الاسم لأنه كان يدرس العلم لبنى آدم والملائكة فكان يقال إدريس النبى، أما مهلائل فكان كاهن العصر فى علم النجوم وقد بدأ ذيوع علم النجوم بفضله، أما فى عهد (شيث) فكانوا يسكنون فى الكهوف ولقد شاهدت فى ديار مصر هذه الكهوف وهى تسع جند آل عثمان، أما فى عهد (شيث) فكانوا يسمون أرض مصر (ايلون) وفى مصر ولد اخنوخ وإدريس، وأصبح سياح العالم وتعلم علم النجوم على يد مهلائل، وتعلم علم الكتاب من جبريل وعلم الحياكة بتمامه، وفى الأربعين من عمره جاءته النبوة فى مدينة (أسوان)، وأصبح نبيًا لقومه، وأقام على ساحل النيل مائة وأربعين مدينة وكانت له البراعة فى علم الهندسة، والمهارة فى علم النجوم وشاع عنه أنه يعرف كل غريب وعجيب فى جميع العلوم، والمدن التى أقامها إدريس النبى على شاطئ النيل هى الآن مدن عامرة، وفى أرض الجيزة المواجهة لفسطاط مصر هرمان بناهما «سوريد» الحكيم بفضل علم إدريس وحفظ فى الهرمين جميع الكتب والكنوز لعلمه وقوع الطوفان، وبعد وفاة آدم وإدريس أصبح هذان الهرمان كعبة للصابئة يحجونها فى كل عام. وكان الرجال يحجونها من الجهة الشمالية أما الجهة الجنوبية فكانت خاصة بالنساء، ولما كان آدم ـ عليه السلام ـ على قيد الحياة كان جميع أبنائه يمضون من مصر إلى البيت المعمور ويطوفون حول الكعبة الشريفة حجاجًا، كما كانوا حينًا يقدمون إلى مصر وحينًا آخر يمضون إلى الشام إلى موضع قريب من «حوران»، وهناك يسكنون، وجاء فى تواريخ الصابئة أن إدريس كان له فى علم الكتاب اليد الطولى والقدم الراسخة، وكانت له معرفة بكل ما فى الوجود، ويحرر جميع الوقائع فى يوميات

ويحفظها فى جبال الأهرام، واقتضت حكمة الله أن ينقضى زمان «شيث» ويوافيه الأجل.

ويقال إن إدريس دفنه فى جبل الأهرام، كما كان الملك «مصرايم» والملك «بيطار» بن حام بن نوح ـ عليه السلام ـ وهما ملكان قديمان، مدفونين كذلك فى الأهرام، وكان من أبناء «شيث» الملك «نقراوش» كاهن العصر وقد شيد فى مصر مدينة عظيمة سماها «أمسوس» وأمسوس فى العبرية بمعنى المدينة الجديدة وسمى القبط هذه المدينة الفسطاط وقد عمرت ورممت بعد الطوفان وسميت «مصرايم» ولذلك تسمى الآن مصر وفى اللغة اليونانية تسمى «مقدونية» وفى العبرية «زرابيت» أما فى العربية فاسمها «القاهرة المعزية»؛ ذلك أنه عام خمسمائة وخمسة وسبعين كان السلطان معز الدين ملكًا للمغرب، وكان سلطان مصر سلطان الإخشيديين واستأذن الملك معز الدين من ملك الإخشيديين فى إقامة جامع فى مصر، فأرسل من يسمى «قائد أزهر»، وهو مملوك عربى، ومال فى ألف خزانة، وخمسين ألف نجار وبنّاء وعامل وحمّال ومعهم العدة والعتاد، والعبد المسمى «أزهر» تولى أمر بناء الأزهر الذى تم بعد سبعة أعوام، وانطلق معز الدين سلطان المغرب إلى مصر وأغار عليها ليلاً، كما أن جنده ادعوا أنهم إنما قدموا من المغرب إلى مصر لبناء جامع الأزهر، واستولوا على مصر من يد أحمد بن على سلطان الإخشيديين جبرًا وقهرًا، وأقام مصر الحديثة، لذا يقال لمصر «مصر المعزيّة»، ولذلك فأهل مصر جميعًا يتسمون إما بقهّار أو بقابض على أنهم ينقبضون على رجال الله، وتسمى مصر «أم الدنيا»[1].

أما نقراوش، هو الذى عمَّر مصر أى «أمسوس» بعد آدم ويمتد عمرانها مسيرة ثلاثة أيام، و«نقراوش» هذا مَلَك مصر مائة وثمانين عامًا، ولما زايل الدنيا الفانية دُفن فى جبل الهرمين، وخَلَفَه ملكًا على مصر ابنه «نتراش»، وقد كان مثل جده سيادة وكمالاً وعلمًا.

(١) يأتى سبب تسميتها بذلك فى الفصل الثامن عشر من هذا الكتاب.

وأقام بعض المدن فى الواحات، ولما مات دفن فى جبل الأهرام وكان مُلك مصر بعده لأخيه.. مصرايم بن نقراوش.. وكان حكيمًا كاهنًا ساحرًا، ومن جملة علمه أنه كان يسخِّر الأسود، وكانت الجن والأسود يحملون سرير ملكه، ولما أدركه الموت دفن فى الأهرام.

ومَلَكَ مصر بعده من يسمى «عبقام» وهو من ذوى قرباه، وقد أقام العدل فى الناس، وفى عهده رُفع إدريس فى أسوان إلى السماء، ولقد أخذ الحزن والألم الصابئة لعروج إدريس فى السماء فأظهروا الفزع والجزع وانتحبوا فكفوا عن العبادات والطاعات. وتمَثَّل إبليس اللعين فى صورة إنسان وادعى للناس أن صورته من الله وقال لهم سائلاً: يا قوم ما لكم تبكون ويأخذكم شديد الأسى؟؛ وحكى قوم إدريس ما جرى من نقل إدريس، وفى التو قال إبليس: يا قوم لا تحزنوا سأحضر لكم صورة إدريس وعلى كل منكم أن يحتفظ بصوره فى داره، وفى كل يوم تشاهدون هذه الصورة كأنكم شاهدتم إدريس وهذا عزاء لكم. فصنع لهم صورة إدريس وحفظوها فى ديارهم، وكلما شاهدوها ذهب عنهم الحزن ونعموا بالسلوى.

وبعد موت الصابئة رأى أحفاد أحفادهم صورة إدريس فى دارهم وقد توارثوها عنهم فزادت محبتهم لها، وشرعوا يعبدونها وهذا أول عهد الصابئة بعبادة الأصنام، وبقيت فيهم من قوم إدريس ومات كذلك الملك «عبقام» الذى كان فى عصر إدريس وخلفه «عرياق»، وكان هاروت وماروت مصلوبان من قدميهما على مدخل غار فى مدينة بابل وسماع قصتهما يثير الفزع، وأوصاف هذين الملكين مسطورة فى كتاب ابن جرير الطبرى، ثم كانت وفاة «عرياق» وأفضى المُلك من بعده لابنه «الوخيم» وهو الذى أقام مدينة «شرق أخميم» شيد سبعمائة دير ومات.

وجاء بعده ابنه «خُصيليم» وعُمّر سبعمائة سنة وهو أول من أنشأ مدينة «أسوان» على شاطى النيل، كما أنه أقام فى تلك المدينة أول مقياس وهذا يعنى أن مصر هى أيضًا أم علم القياس، وتأسيسًا على علم الهندسة كذلك الترع فى جميع أراضى مصر، وأجرى ماء النيل إلى كل زقاق فى مصر، وروى أرض مصر فزادت محاصيلها وبطّن كل الترع

بالرخام السُّمَاقى والمرمر الخام، وأقام السدود على جانبى نهر النيل، وشيد المدن وأوصل النيل إلى بلاد النوبة، وأمر بحفر اثنتى عشرة عينًا، وأنشأ جسرًا عظيمًا وآثارها اليوم ظاهرة باهرة ووُلِدَ نوح ـ عليه السلام ـ فى عهد الملك «حُصيليم» هذا، وتكاثر عدد الناس فى هذا العهد حتى ازدحمت الأرض بهم إلى حد أنه لم يبق موضع فيها لزراعته، وأصاب الناس القحط واشتد الغلاء فعمد الناس جميعًا إلى صيد السمك من الأنهار والبحار، وبذلك عاشوا فى كفاف. ومات «حُصيليم» وأصبح المُلك من بعده للملك «ترسان ابن هوسال» ولما جاءت نوح النبوة وهو فى الأربعين من عمره، آمن به «ترسان»، ثم جاء بعده الملك «شَرْيَاق» ثم ولده الملك «شهلوق ثم ابنه الملك سوريد»، وكان جبارًا فى الأرض ظلومًا وهو أول من فرض الخراج على الرعية.

وبنى الأهرام الكبيرة الواقعة إلى جانب .. بنى سويف .. ولذا تسمى الأهرام أهرام سوريد، وفى حجر منها تاريخ مسطور بالعبرية، ثم جاء بعده ولده «افروس» ومات ودفن إلى جانب أبيه، ثم كان المُلك لابن عمه «فرغان»، ووقع الطوفان فى عصره وكان أول القيامة، وبطل كل علم السحر ومحيت كل العجائب والغرائب والطلاسم والمخطوطات العربية ( )[1] تفجرت الجبال والتى تحمل المعادن والكنوز فى داخلها عيون من الماء وتفجرت الأنهار من الجبال وتلاطمت الأمواج كأمواج البحر وصعد منها العجيج ودام الحال على ذلك أربعين يومًا وليلة فظهرت جميع المعادن والكنوز المخيفة فتغير وجه الأرض ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١]، وعند الطوفان كانت سفينة نوح راسية بجانب جبل الجودى بالقرب من الموصل، وبمناسبة نجاتهم يوم عاشوراء صنع قدرًا ووضع فيها طعام عاشوراء فأصاب الناس جميعًا من هذا الطعام، فشكروا له، وإن طهو طعام عاشوراء هذا سُنّة لنوح وهو آدم الثانى، ويجب أن تكون موضع اعتبار، وثمة دليل قاطع على نجاته من الطوفان على هذا الجبل، فقد جاء فى القرآن الكريم: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ [هود: ٤٤]، وتلك آية نزلت على حبيب الرحمن، وبعد نجاة

(١) بياض فى الأصل.

نوح بسفينته على جبل الجودى وهى أرض مباركة، سكن فيها، وبعد الطوفان شيد نوح مدينة الجودى وهى الآن بلدة صغيرة فى قمة جبل الجودى بالقرب من الموصل.

وبعد ذلك بعث بيظرى بن حام إلى مصر، وبنى مدينة العريش فى أرض حاسان القريبة من مصر، ثم بنى مدينة بلبيس، وقد عمرت تلك المنطقة أيضًا بعد الطوفان ومعروف أنه دُفن فيها سبعة عشر نبيًا، ثم بعد ذلك جاء بيظرى إلى مصر وأنشأ مدينة أمسوس القديمة التى هى مصر فصارت معمورة ثم بنى مدينة منوف، وقد بنى سام بن نوح الشام وفلسطين والقدس، وقد اطلعت على كتب التاريخ ومنها كتاب المقريزى القيم، إنه واسع العلم بالعربية والسريانية والقبطية واليونانية وكأنه فى كثرة سياحاته فيثاغورث، وقد تحدث عن أول من بنى مصر القديمة وكان ما قاله صحيحًا، وهو القائل إن آدم استوطن مصر ثم أمره الله بالتوجه إلى الشام، وكان «لشيث» ولد اسمه (غرباب)، وابنه «نقراوش»، وكان نقراوش هذا من النجباء الراشدين متطلعًا فى جميع العلوم، وقد أحب آدم نقراوش هذا وسماه «مصرايم»، وأمره بتعمير مصر، ومضى آدم إلى الشام، لزراعتها، ومن أسرة «نقراوش» هذا سبعون غادروا الديار فرارًا من ظلم «قابيل»، وكيما يجدوا لهم موطنًا قطعوا المراحل وطووا المنازل إلى أن بلغوا فى مصر جبل «غداس»، فطاب لهم هواؤه، فألقوا عصى التَّسْيَار، واستوطنوا، ولأن جدهم آدم تجول كثيرًا فى مصر إلا أنه لم يقم فيها أثرًا له، وفى ذلك العهد كانوا يسكنون الأكواخ، أما «نقراوش» المسمى «مصرايم» فكانت له فى مصر ذرية، فكان صاحب عشائر كثيرة وكان يشيد المدن والأبنية، وفى كل عام اعتاد أن يزور جده آدم فى الشام وحوران وبصرى ويدعو له، وسماه آدم ملك مصرايم، وسماه الملك فى اللغة العبرية، وكان له الملك مائة وثمانية عشر عامًا، وحكم جميع العشائر، وقد عمر وكان جبارًا عتيًا، وتعلم من أخيه الأكبر «زرايل» من عجائب وغرائب العلوم، واستخرج من جوف الأرض كثيرًا من الكنوز، وأمر قومه جميعًا أن يجمعوا من الجبال الأحجار، ومن هذه الأحجار بنى مدينة فى موضع الخيام تسمى «أمسوس» وهى الآن على ساحل النيل تعرف بمصر القديمة، ويسميها القبط الفسطاط، ولقد أصبحت مدينة معمورة عظيمة إلى

عهد الطوفان، وهى الآن كذلك مدينة عتيقة والأحجار التى فيها كبيرة، كأنها أحجار الهرمين، وطول الحجر عشرون وعرضه خمسة عشر ذراعًا.

وفى الأبنية الأثرية حجارة كثيرة كأنها الهرمان، وكل حجر يبلغ فى الطول والعرض عشرين وخمسة عشر ذراعًا، وقد رآها بعضهم، فقالوا إنها من بناء الجن، لأن بنى الإنسان لا يقدرون على حمل هذه الأحجار، أما من يعارضون فى هذا فليس لديهم من خبر ولا علم، فما وجد بعد هبوط آدم من الناس من له مثل هذه القوة، وكان طول كل إنسان مائة ذراع، أما الآن فلا يتجاوز طول الإنسان ذراعين أو ثلاثة أذرع، ولكن بواسطة آلات الرفع يستطيع أن يرفع جَبَلَ (بيستون) ويستطيع نقله من مكان إلى آخر، ومن يعارض فى ذلك لا علم له ولا خبر لديه عن علم جر الأثقال، وليعلم أيضًا أن (همة الرجال تقلع الجبال).

وفى مدينة (أمسوس) خلق كثير، وقد حشد الملك (مصرايم) جيوشًا جرارة وأراد الانتقام من (قابيل)، فانطلق إلى الشام، كما أن (قابيل) جيَّش جيشًا عظيمًا إلى فلسطين وقد عسكر فى مدينة الرملة، وقد اجتمع الجيشان وخاضا حربًا ضروس، وقتل «هابيل» من رجال «قابيل» مائة ألف إنسان، وإن قابيل هو الذى ناشب (مصرايم) هذه الحرب وبما أن هذه الحرب وقعت فى صحراء الرملة. يسمونها فى العبرية فلسطين، وقد ألحق مصرايم الهزيمة بقابيل وغنم أموالاً وغنائم كثيرة وصلت مصر، وبهذه الأموال التى غنمها قسّم النيل إلى فروع، وشق الترع والخلجان فروى الصحراء والحقول، وزرعها، وكان النيل يجرى وله فرع إلى بلاد النوبة، وآخر إلى بحر السويس، وفرع يجرى إلى المغرب فى أرض بنى هلال ويصب فى خليج (كبرت)، ولكن بفضل علم مصرايم بالهندسة ارتفعت كل أرض فكانت تنقسم إلى خلجان وبذلك كان يُجرى النيل إلى الأراضى التى يريد ريها.

* وبنى مصرايم الهرمين التى فى مواجهة مصر، وأنشأ لنفسه مرقدًا ومخزنًا لكنوز الفرعون الكثيرة وبعد أن عُمر مصرايم سبعمائة وخمسة عشر عامًا انطوى كتاب عمره،

وجعل الهرمين مقبرة له، ودفنوا معه أمواله ومن عهد الطوفان إلى اليوم لم ينقطع نسله، وكان لذريته مُلك مصر، ومَلك مصر من ذرية نقراوش سبعون ملكًا.

وفى زمن الطوفان بناء على ما سلف ذكره كان للملك (لفرغان)، وإن نقراوش المذكور وهو من أبناء مصرايم كان له كاهن يسمى (قليمون) وله طول الباع فى شتى العلوم، حتى إنه استطاع بغزارة علمه أن يتنبأ بوقوع الطوفان على أنه غضب من الله، وقبل الطوفان زايل جده وطنه مصر ومضى ليكون إلى جوار نوح فى الكوفة، فشرف بالإيمان، وسكن العراق مع أهله وعشيرته.

وكان بعد ذلك لنوح ابن يسمى «حام»، وكان لحام ابن يسمى (بيطار)، وقد زوج قليمون الكاهن ابنته بيطار، وبذلك تمت القرابة بنوح، ولما حل زمان الطوفان، ركب نوح وجميع من معه السفينة، ونجى من الطوفان، واستوت على الجودى بعد أربعين يومًا، وبعد الطوفان عمر نوح مدينة الجودى، وهى الآن قصبة الجودى، وتلقى قليمون الكاهن وصهره بيطار الأمر من (نوح) بالتوجه إلى إسوس التى بناها جده مصرايم، وهى مصر القديمة، وبعد قطع المنازل وطى المراحل كانت نجاتهما من الغرق، وجعل بيطار يبحث عن طريق، ونزلا بمكان بالقرب من مصر يسمى العريش وأقاما فيه، والعريش فى اللغة العبرية بمعنى المقر أو المستقر.

وكانت قد غرقت فى طوفان الغضب، وجلسا يستريحان فى ظل شجرة، واقتضت حكمة الله ـ تعالى ـ أن يكون لبيطار هذا من ابنة الكاهن قليمون التى تسمى (زوزه) ولد وسمى كذلك مصرايم، وكان مصرايم بن بيطار هو أول مولود ولد بعد الطوفان، وأقاموا الأفراح فى العريش، وبما أن ظل الشجرة موضع مبارك زينوا الشجرة بالثياب وانطلقا إلى بلبيس واستطابا جوها ومكثا فيها، وقبل الطوفان كانت بلبيس مدينة السحرة، ووجدوها خرابًا وبعد ذلك مضوا إلى أرض مصر ولكنهم لم يجدوا فى مدينة أمسوس التى بناها مصرايم أثرًا بعد الطوفان إلا ما فى مواجهة النيل من أهرام بناها إدريس للتعليم، ولكى ينجوا من الطوفان دخلاها فغرق كل متاعهما فقالا لنبحث لنا عن وطن آخر، فمضيا فى سفينة إلى منوف ووجدا فيها مكانًا طيب الهواء، وبجانبها

جزيرة جميلة فى النيل، فمكثا هناك وسكنا أكواخًا وخيامًا، وعلى مر الأيام كانت لهما ذرية وتحصل لهما مال جزيل من الزراعة؛ وكان وطنًا كثير الخيرات والبركات، وهناك أقاما بليدة صغيرة، وسموها منوف، ومعنى منوف فى اللغة العبرية (مكان المتعة).

وكانت منوف هى القرية الثانية التى تم بناؤها بعد قرية الجودى التى بناها نوح - عليه السلام - على جبل الجودى بالقرب من الموصل حيث رست سفينته بعد الطوفان، وقد عاش فيها بيطار عمرًا طويلاً، ومنوف مدينة عظيمة وبإيعاز من قليمون الكاهن صحب بيطار أهل بيته معه إلى «أمسوس» التى بناها جده وعمَّر قليمون مصر العتيقة التى بناها أجداده، وعمر قليمون الكاهن ألف سنة ودفن فى الهرمين إلى جانب مصرايم وكان قليمون هذا هو أول من مات بعد الطوفان، ودفن فى الهرمين إلى جانب مصرايم، وهو الذى أقام فى مصر مدينة الواح.

* * *